بعض عيوبنا الاجتماعية

لحضرة صاحب العزة محمد البابلى بك

مدير كلية البوليس والادارة

لست أزعم إذا ماحدثت القراء عن عيوبنا الاجتماعيـة أنى سوف آتيهم بجديد . فهم ولاشك أعرف منى بها وأدرى . ولعل قائلهم يقول وما الفائدة اذن من التكرار والقول المعاد؟ الفائدة . اننا على الرغم من ادراكنا لهذه العيوب كثيرا ماننحدر الى نسيانها واغفال أمرها وكثيرا مانمر بها مر الكرام يأسا منا وقنوطا من القدرة على اصلاحها .

فنحن قد نحس بها أحيانا ، وقد نراها رأى العين أحيانا ، ونحن قد نحزن لها ونأسف وندق الكف عليها ونبكى ، ولكنا — وهذا فى ذاته عيب أى عيب — لا نحاول أن ننهض لعلاجها .

بل قد يكون فينا من لا يحس بها أو لا يدرك خطرها لأنه لا يراها مجسمة أمام عينه ، وقد يكون فينا من يراها ولكنه يفر من رؤيتها ، كمن ينظر الى المرآة فلا يعجبه منظر ناحية من وجهه فيدير للمرآة الناحية الأخرى لعلها ترضيه .

يقول المثل العربى " رحم الله امرءا عرف قدر نفسه ".

ويقول المثل الانجليزى " ليت لنا عيونا نرى بها أنفسنا كما يرانا غيرنا " .

حقا إن عيوبنا الاجتماعية كثيرة قد يحار الناقد بأيها يبدأ ، وخطيرة قد لايدرى المصلح أيها أشد فداحة .

ومن عجب أن هذه الكثرة نفسها وهذه الخطورة بعينها هى مصدر يأسنا من إصلاحها ومنبع عجزنا وقعودنا عن علاجها . وقد كان جديرا بنا أن يكون الأمر على العكس من هذا فإن ثقل العبء وعسر المهمة وخطورة الواجب ، كل هـذه انما تكون عند ذوى الهمم ودعاة الاصلاح حوافز على مضاعفة الجهد لا على نبذه ، وعلى الكفاح والنضال لا على التراخى والملال .

وبعد فانى أختار لمقالى اليوم عيبا خلقيا هو مصدر الكثير من نواحى النقص فى حياتنا الاجتماعية ذلك ما أسميه " بالسطحية ".

وأرجو اذ أتنـاول هـذا العيب بالبيان أن يغفر لى القراء ما قـد يلحظونه فى مقالى من مصارحة ثم من مبالغة .

فأما المصارحة فإنى أرى ألا مفر منها فلا عيب أبدا فى أن نواجه أنفسنا بما فينا من عيوب بل إن العيب كل العيب هو أن نحاول إخفاءها عن أنفسنا ثم عن غيرنا زعما منا فى أن كتمان أمرها حرصا على كرامتنا بين الشعوب وبين الأمم ، وهو زعم ما أفسده وما أضله ، فإن الذى يجرح كرامتنا ليس افتضاح أمر عيوبنا أمام الناس وإنما قيام تلك العيوب بذاتها وقعودنا عن علاجها . أفليس من كرامتى إذا ما كان وجهى قذرا أن أبادر فأغسله ليبدو نظيفا بدلا من أن أستره بحجاب أو أن أغطيه بنقاب حتى لا يرى قذارته الناس ؟

فأما المبالغة فقد يكون من الخير أن ألجأ إليها عامدا فى هذا المقام . وقد يكون من الخير أن استكثر منها لكى تبدو عيوبنا أمام أعيننا مكبرة كثيرا ، ومضخمة كثيرا فتثور نفوسنا لبشاعتها وتهب للقضاء عليها . ولنا فى ذلك أسوة بأستاذ الطب عند مايصور لمستمعيه أسباب العلة فيضع أمامهم تحت المجهر جرثومة الداء لتظهر مجسمة عشرات أو مئات المرات بكل ما فى منظرها من قبح دميم ، وما فى مظهرها من خطر جسيم .

* * *

نحن سطحيون فى ملبسنا . فنحن نتجه إلى مظهرنا الخارجى فى لباسنا فنوليه كل همنا ثم لا نكترث بما يستره ذلك المظهر من بواطن قد تكون مزرية مخجلة — ولكننا لا نأبه لها ما دمنا واثقين أو على التعبير الأصح واهمين أن غيرنا لا يراها .

فأنت قد ترى فينا من يهتم بغطاء رأسه من طربوش أو عمامة أو قلنسوة ليبدو زاهى اللون جذاب المنظر بينما هو لا يأبه بالا لما يخفيه ذلك الغطاء فى جوفه من عرق زنخ قوى الشذى ، أو بما يختزنه فى طياته من كائنات شديدة الأذى .

وقد ترى الرجل يكاد يشق الأرض تيها فى بذلته الجديدة وقميصه الحريرى ذى الأنسجة الزاهية اللامعة ، والألوان الصارخة المائعة ، وهو يلبس من تحت ذلك أثوابا قد تكون مهلهلة كالفتات ، وقد تكون منقوشة نقشا ولكن بدماء المخلوقات ، زهقت أرواحها ضحية لهرشه ، وخمدت أنفاسها نتيجة لحكه وكرشه .

وقد ترى الرجل يضع فى ربطة عنقه دبوسا من اللؤلؤ الكاذب أو فى كم قميصه أزرارا من الذهب المموه أو فى أصبعه خاتما من الماس الزائف أو قد تراه يضع حلية صادقة غير كاذبة بعد أن أنفق فى سبيل اقتنائها ما ادخر من مال حلال ، أو ما امتدت يده إليه من أجلها من مال حرام ، مال قمار أو مال رهان ، ليحتفظ بمظهر يظن أنه يخدع به الرفقاء ، أو يوهم به البسطاء .

وقد ترى الرجل وهو يضن بالمال الذى يحتاج إليه أهل بيته لغذائهم وكسائهم ، يولم الولائم الفخمة ويمد الموائد الضخمة ، ليوهم أنه كريم سخى ، ويعلن أنه وجيه غنى ، ثم يقضى

بعدها أياما على الطوى قانعا على كره منه بالطعام المدكن ، والخبز المعفن ، أو قد تراه ينفق المال فى شراء الطيب المتين ، والعطر الثمين ، فيسكبه على ردائه يحاول أن يستعين به على ما ينبعث من نفحات العرق المعتق من جسمه المغبون الذى طال أمد البعد بينه و بين الماء والصابون.

وقد ترى الرجل يزهو معجبا بريق حذائه ، بينما هو يضن حتى بمثل أجر طلائه ، على جوربه الأسير ، ذى الخاطر الكسير ، فلا يرى فيه ثقبا ، ولا يسد فيه نقبا .

ثم قد ترى السيدة وقد قصمت ظهر زوجها إرهاقا ، وأمعنت فى روحه إزهاقا ، من أجل أن يبتاع لها الفستان من نفيس الحرير وبديع الألوان ، لتغيظ به جارتها ، أو تقهر به ضرتها ، وكان فى وسعها أن تشترى بنصف أو ربع ثمنه ثوبا أكثر خفة ورشاقة ، وأعظم رقة وانانقة ، وأقرب انسجاما فى تناسق الالوان ، وانطباقا على شروط الصحة وسلامة الابدان .

وقد ترى ربة البيت وقد ألبست صالونها فى يوم الاستقبال حلة قشيبة زاهية فبدا بهجة للناظرين ، وأنسا للزائرين ، بينما أن البيت فيما خلا ذلك اليوم وحده دون بقى الأيام والساعات ، وفيما عدا ذلك الصالون وحده دون غيره من الغرف والحجرات ، تراه فى الفوضى وسوء النظام مضرب المثل ، وفى القذارة لا يفضل مرتع البغل ولا مرقد الجمل .

وقد ترى الفتاة وقد حرصت على ان تنتق أدوات زينتها من بين أندر الأنواع وأغلاها ، وأنفس البضائع وأعلاها ، عمدت بعد ذلك إلى طمس معالم طلعتها الجميلة الغضة ، وتكفين بشرتها النضرة البضة ، بمختلف أنواع الطلاء الخداع ، من كل براق ولماع ، وكان خير لها أن تحتفظ بتلك البشرة المعذبة حرة طليقة تتغذى بما أنعم الله به على عباده من هواء سليم ، وتنعم بما ترسله الشمس من شعاع قى مستقيم ، وتقوى بما وهبتها الطبيعة من وسائل للرياضة البريئة من كل إسفاف ، خالية من كل نفقة أو إسراف .

بل وقد ترى المرأة وقد جلست إلى حفلة العرس يتصبب وجهها عرقا ، وتجحظ عيناها نصبا وفرقا ، ويحتدم الكفاح بين طلاء وجهها وسيل عرقها ، هذا يدبر وذاك يدافع ، هذا يهجم وذاك يمانع ، ولكنها تجالد وتجاهد بمروحة فى يدها زينت بالأصداف المطعمة ، وحليت بالرياش المنعمة ، وهى فى ذلك راضية النفس ، ساكنة الحس ، لأنها قد أخرست ألسنة حسادها ، و بهرت أعين قصادها ، بما ترتدى من ثوب غال متين ، و بما تلتفح من فرو نادر ثمين ، و بما تتحلى به يدها الدائبة الحركة ، الضائلة البركة ، من ماس لامع دائم الانخفاض والارتفاع شديد البريق و الاشعاع .

ثم نحن سطحيون فى ما كلنا ، فقد ترى الرجل يقبل فى نهم وشراهة على كل ما تشتهيه بطنه و يجرى اليه لعابه يملأ به جوفه غير عبئ بما فيه من دسامة ولا بما فى سوء هضمه من جسامة ، ولا بما يسببه لبدنه من ارهاق ، ولا بما يحدثه فى جيبه من آثار فقر واملاق ، لا يهمه من ألوان الطعام ما تحتويه من عنصر صالح متين ، أو قدر نافع من الفيتامين ، بل الذى يستهويه هو ما يظهره وجه ذلك الطعام من مظهر خلاب ، وما يبديه سطحه من منظر جذاب ، أو ما يرسله من شذى شهى كشذى الكباب .

وقد ترى المرأة وقد أجاعت ولدها المسكين، أو رهنت مصاغها الثمين، أو عالجت برقيق النعل حليلها الأمين، فى سبيل اشباع رغبة ساذجة، ولهفة فى قلبها متأججة، هى تحصيل ضريبة العيد، ذلك الكعك الذى قضى به تافه التقليد، والذى يحمل فى طياته، و بين ثناياه ولفاته، القصاص العاجل على النهام فتاته .

ونحن سطحيون فى مسكننا فقد ترى الرجل الموسر اذا ما ابتنى لنفسه بيتا عمد الى واجهة ذلك البيت فأشبعها نقشا وتنميقا، وأوسعها طلاء وتزويقا، وزوّد مدخلها بالحكم المرتبة، والأمثال المهذبة، والآيات المذهبة، ورصعها بالصور المصفوفة، والتماثيل المشطوفة المرصوفة، يطيب له أن ينفق فى هذا الزخرف ما شاء له الانفاق، وأن يغدق ما شاء له الإغداق، بينما قد ترى لديه دورة المياه وقد اكتفى فى تشييدها بالمواد الرخيصة التديمة، والأدوات المستعملة القليلة القيمة، فترى السيفون رابط الجأش لا تهزه الأهوال، ولا تحركه أيدى الأبطال، وترى الحنفيات تئن تارة وتصيح أخرى فاذا ما تصديت لعلاجها انطلقت فى وجهك تتهدر كالناجرة لا يرد هجومها وازع، ولا يدفع لغوها دافع .

أو قد ترى صاحب البيت وقد وجه همه الى أثاث غرفة ضيوفه فزودها بالطافس الفاخرة، والفرش الوثيرة النادرة، ثم علق فى ارجائها النفيس من الصور والستائر من دمقس وحرير، بينما هو يخل على غيرها من حجرات بيته حتى بالبالى من البساط أو المتهاهل من الحصير .

أو قد تراه وقد غطى سريره أو مقاعده بالأغطية المزركشة المبطنة، والمخامل المهندمة الملونة، بينما هو قد دس تحت ذاك المقعد أو ذلك السرير اناء ممتلئا بالخضر الداكنة، والنحوم العفنة بل المنتنة، أو صحنا مزودا بالأرز المعمر، والخبز المقمر .

أو قد تراه وقد حشر تحت وسادته، أو بين طيات فرشه أو سجادته، بعض ما يحلو له أن يتزود به أثناء الليل من ألوان الطعام الشهى، والزاد الطرى .

ثم قد ترى خادم البيت اذا هم بإلقاء الفضلات خارجا عاد فتفضل أن يخفيها تحت طرف بساط، أو خلف ظهر مقعد مطاط، أو فوق سطح دولاب غير ذى احتياط، ثم قد تراه وقد شرع فى تنظيم حجرة ما قد عمد الى ما ظهر منها دون ما خفى فاكتفى بكنس ما بدا من الأرض حول أطراف البساط المصاب، أو ما بدا من الجدران حول جوانب المقعد أو الدولاب، بينما هو قد ترك تحت هذا البساط أو فوق سطح ذلك الدولاب أو خلف ظهر ذلك المقعد مجموعة من العناكب والزواحف، والابراص والسلاحف، قد تصلح لتزويد باحث فى علم الحشرات، أو تغذية قسم من أقسام حديقة الحيوانات .

أو قد تراه اذا ما انبعثت من خلال تلك المخابىء والمكامن روائح قد تؤذى القادم عمد الى البخور فأطلقه فى جنبات القاعة لتطغى عليها رائحته القوية، وتبتلعها نفحاته الذكية .

بينما قد ترى الضيف من ناحيته يثأر لنفسه غير ثائر، وينتقم من مضيفه غير عامد ولا شاعر، فيختلس اللحظات يخلو فيها لنفسه لا يراه أحد أولا يحس به أحد فيودع جوانب المقعد الخفية، وأركانه الخلفية، ما أفرغه من جعبته من مفرزات، وما علق بأنامله من مقتطفات.

يذكرني ما قلت — والشيء بالشيء يذكر — بقصة مدمن الأفيون عند ما سأله القاضي لماذا لجأ الى الادمان، فأجاب أنه أراد أن يستعين بالنوم على لدغ "الأكلان".

ونحن سطحيون في صناعتنا فأنت قد ترى صانع الحذاء يبرز لك سطحه مزركشا مطليا، ووجهه مرصعا مجليا، بينما بطانته أو حشو نعله من الورق المغشوش، والعهن المنفوش، وقد يرى صانع الدولاب يعرضه عليك شديد البريق والبهجة، بادي الزينة والوهجة، بينما رفوفه الداخلية، أوجوانبه الخفية، مصنوعة من الخشب الواهن النحيف، الركيك الضعيف، وبينما أدراجه لا يكاد يمضي على استعمالها أيام معدودة، حتى تصبح كالقرحة المشدودة، مصدرا للصراخ والعويل، ومنبعا للتمرد والعصيان الطويل.

ونحن سطحيون في تجارتنا فقد ترى التاجر محبا للعاجلة لا يهمه ارضاء عميله بقدر ما يهمه كسب صفقته فهو يبيعه بضاعة سطحها جميل براق، وما تحت السطح تالف مر المذاق، ثم ينتهي به الحال الى خسارة الاثنين العميل وسمعته معا.

وقد ترى التاجر يبني تجارته على سطحي التقدير، ذي النظر القصير، فلا يحسب حسابا لتقلبات الأسواق، ولا يأبه لتنوع الأمزجة وتطور الأذواق، ولا يفرق بين رأس ماله العامل، وماله الاحتياطي العاطل، بل قد يضارب بربحه أو هو يخلط بين الربح والدخل، ويمزج بين الفرع والأصل.

أو قد تراه إذا ما اطمأن الى رواج تجارته، أخذه الزهو والغرور فصعر خده لعملائه أو تهاون في اختيار بضاعته، أو ضاق صدره بمالهم أو كف عن الاعلان عن سلعته، ظنا منه أن مركزه قد توطد فأصبح في غير حاجة الى الدعاية، وبذلك ينزلق مغمض العينين الى سوء النهاية.

ونحن سطحيون في ثقافتنا فقد اعتاد الكثير منا أن لا يحب العلم من أجل تحصيل العلم ولا يتخذ من النجاح في امتحان العلم إلا وسيلة لغاية منشودة، تلك هي الوظيفة المرجوة المقصودة

فأنت قد ترى الطالب إذا ما دخل المدرسة عمد الى الكتاب المقرر للدراسة فابتلعه ابتلاعا، واختزنه في رأسه اختزانا، دون أن يحاول له هضما، او يقصد لمحتوياته فهما، حتى ليخيل إليك أنه مستطيع أن يتلو عليك من الكتاب الصفحة التي تختارها له ولو بدأت بمنتصف جملة أو بقية عبارة، أو أنه قادر أن يقرأه عليك متراجما الى الوراء من نهاية الكتاب الى بدايته، أو أن يتلوه سطرا دون سطر أو سطرا دون سطرين. ثم لا يكاد يجتاز الامتحان حتى يقذف بالكتاب فيطلقه طلاقا بائنا، ثم ينطلق الى كتاب الدراسة الجديد فيهاجمه ملتهما ما فيه كما التهم أخا له من قبل، ثم هو يقصد بعد ذلك الامتحان فيفرغ بين يدي الممتحن ما وعته رأسه دون عقله، حتى إذا ما فاز بعد كل هذا الجهد بالنجاح، وحظي بالوظيفة ذات السلاح، أو ذات الوشاح، أو ذات الأرباح، حمد الله على أنه قد تخلص من العلم، ومن سماجة العلم، ومن رذالة العلم.

وهكذا يخرج طالب العلم من دور العلم وهو أشد ما يكون نفورا من العلم وتبرما بتحصيله ، فلا يلبث أن يتبخر من رأسه ذلك القليل من شتاته الذى جمعه من قبل كارها أو مكرها ، حتى لتكاد تجزم بأن من نجح فى امتحان الشهادة العليا لا شك راسب لو أعيد امتحانه فى الشهادة الوسطى ، وأن من اجتاز امتحان الشهادة الوسطى لاشك راسب لو امتحن فى الشهادة الصغرى .

ثم إنك لترى رب الأسرة يظن واهما أنه إذا ما بعث بولده الى المدرسة فقد فرغ من واجبه نحو ذلك الولد ، فيهمل أمر تربيته كما يهمل تتبع جهده فى دراسته ، وقد فاته أن التربية والتعليم صنوان لا يجب أن يعيش أحدهما بعيدا عن الآخر . وإنك لتجد من الآباء من لو سألته عن ولده فى أى فصل هو أو فى أى سنة من سنى الدراسة هو لما أحار جوابا . وانك لتجد من الآباء من إذا أنس فى ولده حبا فى الاطلاع أو ميلا الى التنقيب أو رغبة فى البحث فى نواحى العلم وفى نواحى الالمام بأطوار الحياة وأسرارها انتهره وعنفه ، وطلب منه أن يكف عن اللغو والهلس ، وأن يقصر همه على الالتفات لحفظ الدرس . فيصبح المسكين وقد حمد فى ذهنه وجنانه ، وذوى قبل وقته وأوانه ، خير ما فيه من ملكات فطرية ، هى أساس النبوغ والعبقرية ، واختنقت فى مهدها ما فيه من مواهب نافعة ، قبل أن تجد الفرصة لتتفتح زاهية رائعة .

وها أنت قد ترى الاقبال على المطالعة لا يكاد يجد رواجا إلا فى التافه من المطبوعات ، والغث من المؤلفات ، والضار بل والساقط من الروايات .

أو قد ترى رجل اليوم وطالب الأمس وقد اشترى الصحيفة فأصبحت له ملكا حلالا بكل ما فيها من طرائف نافعة ، وأزهار يانعة ، وجواهر ناصعة لامعة ، اقتطفت بعد كد ونصب ، وعناء وتعب ، من رياض الفن وذخائر العلم وحدائق الأدب . فلا يكاد يلقى نظرة عابرة عاجلة على نبأ يهمه ، أو صورة تجتذبه ، حتى يطوى الصحيفة متململا ، ويلقى بها متثاقلا . فاذا ما احتفظ بها فلأنها قد تنفعه فى الاستظلال من وهج الشمس الحارق ، أو الترويح من قيظ الصيف الخانق ، أو تغليف أقة اشتراها من البلح أو الجوافة ، أو رطل من الفطير أو الكنافة .

وأخيرا نحن سطحيون فى نظرتنا للحياة فقد ترانا ونحن فى ذلك أكثر تشبها بالصغار ، ينظرون ولا يتأملون ، ويبصرون ولا يتبصرون ، تخلب أنظارنا مظاهر الأمور ، وتأخذ ألبابنا دون اللباب القشور ، وتستهوينا الألفاظ الرائقة المزوقة ، وتسحرنا العبارات المسجوعة المنمقة . أو ترانا أكثر تعلقا بالعرض منا بالجوهر المشروع ، وأشد تمسكا بالشكل منا بالموضوع .

هذا ما سميته بالسطحية وهو لعمرى عيب كما يرى القراء متغلغل فى أوساطنا ، متصل بكل ناحية من نواحى حياتنا . فهل فكرنا وقد سما بنا استقلالنا الى مسرح الحياة الدولية ، فأصبحنا أمام العالم محط الأنظار ، ومهبط الكاشف من الانوار — هل فكرنا ونحن مقبلون بعد هذه الحرب الطاحنة على الاضطلاع بأجسم الاعباء وأثقلها وأخطر التبعات وأعضلها ، أقول هل فكرنا فى التخلص من ذلك العيب وغيره من عيوب . وهل وطدنا العزم على أن نعمل للقضاء عليها . وهل آن الأوان أن نقوم قومة الرجل الواحد لمواجهة هذا الداء الوبيل القتال للاخلاق والهمم ، والمدام للشعوب والأمم .

محمد البابلى